صحيفة المرأة المسلمة

العدد : ٢٠٩ الموافق في محرم ١٤٢٠ هجري ٥ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : يوم في حياة امرأة غير عاملة	بقلم : أم عبد الرحمن

استيقظتْ في تمام السادسة ، عندما رن جرس المنبه المريع الذي كان قد اشتراه زوجها ليوقظه كل صباح ، لكن الذي حدث ، هو أن هذا المنبه منقطع النظير في ضوضائه ورنينه الذي يشبه صليل اختراق الطائرات لحواجز جدران الصوت ، هذا المنبه كان يوقظ أهل الحي كلهم إلا الزوج .. الذي كانت شدة التعب وطول ساعات العمل ، وقلة ساعات النوم ، لا تغرقه في نوم مطبق فحسب ، ولكن تجعله مستثنى تماماً من حمل أي عبء أو مسؤولية في البيت ، أو مع الأهل والأولاد .

شرعت في سنة الفجر ، وقبل أن تتم قراءة الفاتحة ، كانت ابنتها الرضيعة قد استيقظت ، وبدأت بالبكاء ، مما اضطرها إلى قطع الصلاة ، وحمل الطفلة لإسكاتها ، حتى لا تسبب بصوتها إيقاظ الأب منزعجاً .. وعندها يخيم الازعاج على البيت طيلة ساعات النهار .. فتسكيت الأولاد مهمة المرأة ،كما أن من مهامها الحفاظ على راحة الزوج ، ونومه دون أي معكر لصفو راحته .

صلتْ الفرض وهي تحمل الصغيرة ، ثم هرولت نحو المطبخ فأعدت الحليب ، أرضعت الصغيرة ، غيرت ملابسها ، لكن الصغيرة لم تسكت ولم تهدأ ، حملتها إلى المطبخ حيث جهزت الحليب ، والقهوة ، وتركتهما على نار هادئة ، وذهبت تكوي سروال زوجها ، وهي تحمل الطفلة التي نامت بعد جهد جهيد .

تركتها في مهدها ، أسرعت إلى المطبخ ، فوجدت القهوة قد احترقت ، والحليب قد فار وطفّ ، وغطى موقد الغاز بطبقة من القشدة ، تقشعر لهول رؤيتها ملتصقة بالموقد الأبدان ، خاصة عندما يعلم المرء أن لا مفر من حكها وتنظيفها ، ولو بعد حين !.

أيقظت الزوج ، ونظفت حذاءه ، فهي إن لم تفعل ، نسي تنظيفه ، وذهب إلى عمله بحذاء متسخ مغبّر .. وكانت معه حتى صلى ، وتجهز ، وتناول قهوته ، وخرج كالسهم نحو عمله الذي ما يفتأ يذهب إليه متأخراً بسبب عدم عثوره على ساعة منبه ، تتمتع بصوت يليق بسحبه من أعماق نومه كل صباح !.

أعدت فطور ولديها الصغيرين ، أيقظتهما ، نظفتهما ، ألبستهما ، أطعمتهما ، تركتهما يتفرجان على برنامج الأطفال الصباحي ، وعادت إلى المطبخ تُعِد وجبة الحليب التالية للرضيعة التي بدأت تبكي من جديد .. والتي قام الطبيب بوضع برنامج تغذيتها بعدما نصحها بعدم إرضاعها .. مُجردَ أن اشتكت له من بكائها المستمر .. فلم يفد نظام الرضاعات الاصطناعية هذا في تهدئة الوليدة ولا إسكاتها ، وزاد الطين بلة بسبب قضائها الساعات الطوال في غلي الرضاعات ، وغسلها ، وتحضير الحليب ، وشرائه ،

وإعطائه للطفلة .. مع حرمانها هي من حقها في إرضاع وليدتها ، وقطع ذلك السيل من الحنان والعطف الذي اتصل بينهما منذ شعرت بها أول مرة جنيناً يتحرك . وضعت الرضيعة في عربتها ، واصطحبت صغيريها بعد حفلة أخذ ورد ، وقيل وقال .. وتوجهت نحو روضة الأطفال ، نزلت بالثلاثة والعربة أربعة طوابق ، اجتازت ثلاثة ساحات تفصل بينها أدراج متعاقبة ، ثم صعدت في الطريق المؤدية إلى الروضة ، والذي كان يبدو لها وهي تدفع عربة الصغيرة أمامها كل يوم ، وكأنه " درب الآلام " الذي يجب عليها تسلقه يومياً أربعة مرات صعوداً ، والانزلاق فيه أربعة مرات هبوطاً ، ذلك أن دوام هذه الروضة ذو فترتين تفصل بينهما ساعتا الغذاء .

بعد أن أودعت الطفلتين الروضة ، عادت أدراجها ، فعرجت على دكان الخضر واللحم ، واشترت المنظفات وفوط الأطفال ، وذهبت إلى الصيدلية لشراء طعام خاص بالرضيعة .. وهناك اكتشفت أن النقود التي في حوزتها لا تكفي ، فأصابها الإحباط وهي تفكر في كل الأدراج التي يجب أن تهبطها وتصعدها لكي تذهب إلى الدار فتأتي بالنقود .. فطلبت إلى الصيدلي أن يعطيها طلبها ، على أن تدفع إليه نقوده في الغد .. وهي تعلم ما الذي سوف يفعله زوجها عند علمه بذلك !! .

عادت إلى البيت ، أسرعت إلى المطبخ ، جهزت اللحم المفروم ، وأحضرت الكوسا وراحت تقطعه ، وهي تراقب الرضيعة النائمة في عربتها ، وهي تسمع نشرة الأخبار الصباحية : مقتل العديد من الفلسطينيين في مظاهرة حاشدة ، ذبح عشرين مصلياً في اشتباكات دينية في الهند ، انفجار عبوة غاز في أحد أحياء مدريد ، مندبة عظيمة في غرناطة بسبب موت أحد مصارعي الثيران من المشاهير

وضعت الكوسا فوق اللحم ، ولم تكد تَقلبها ، حتى بدأت الصغيرة بالصياح ، تركت الكوسا ، وذهبت تغير للرضيعة ملابسها ، وتجهزها لتناول طعامها ، مما استغرق أكثر من ساعة ، عادت بعدها إلى المطبخ مع الطفلة ، فصنعت الأرز وتركته على النار ، ثم هرولت فأمّنت حركة الصغيرة بحزام الأمان في عربتها ، وتركتها تتلهى بصور برنامج الأطفال أمام التلفاز ، وأسرعت لإحضار الولدين من الروضة ، وكان قد فات موعد خروجهما من الروضة عشرون دقيقة .. وقبل أن تصل إلى منتصف تلك الطريق الصاعدة ، وجدت إحدى العاملات في الروضة قد اصطحبت الطفلين عائدة بهما ، ووجهت إلى هذه الأم - المهملة -عبارات اللوم المبطنة بالعتاب الرقيق .

عادت إلى المنزل مهرولة ومعها الطفلان المتعبان .. فلما وصلت كانت الرضيعة قد أنهكت بكاءً .. وكان الأرز قد احترق ، فشرعت قبل أن تخلع جلبابها في عمل أرز جديد ، واسندت مهمة إسكات

الرضيعة إلى أخيها الكبير ، الذي لم يُتم أربعة أعوام من عمره بعد .

بدأت بتسخين طعام الصغيرين ، فهما لا يأكلان - حسب أوامر الوالد - الطعام العادي ، ولا بد من تحضير طعام خاص بهما ، يحتوي على جميع القيم الغذائية ، وجلس الصغيران كلٌّ أمام صينية طعامه لتناول الغذاء ، بينما جلست معهما تطعم الصغيرة وتشرف عليهما .

طُرق الباب ، فلما فتحته وجدت جارتها قد اتشحت بالسواد ، طالبة منها أن تترك عندها ابنتها الصغيرة ، ريثما تذهب إلى صلاة جماعية على " مُصارع الثيران " الذي كان قد قضى نحبه عندما طعنه الثور في باطن فخذه ، بعد أن كان هو قد طعن الثور أكثر من ثلاثين مرة في رقبته ، وصدره ، وظهره ، ورجله ، ورأسه !!.

حضر الزوج .. ودخل عابساً متجهماً متعباً .. فألقى سلاماً جافاً ، ونظر في حنقٍ إلى أحد ولديه وقد لطخ كل ملابسه ووجهه بالطعام وهو يأكل ، فقال لها بعد أن استفهم عن وجود بنت الجيران عندهم : كم من مرة قلت لك أن لا تتركي الأولاد بهذه الفوضى ؟! ألم أقل لك أن تطعمي كل واحد منهم منفرداً !

قالت له : ومن أين سآتي بالوقت ؟ وماذا سيفعل الآخران ، بينما أجلس لأُطعم واحداً منهم منفرداً ؟

قال هذه مسؤوليتك ، حلي أنت المشكلة ، ونظمي وقتك ، وكفاكشكوى! أين طعامي ؟

قامت لتجهز طعامه ، فصرخ فيها : ألم أقل لك لا ينبغي ترك إطعام الأولاد والنهوض لكي لا تتشتت وتتبعثر قدرتهم على التركيز ؟!!

حضّر الرجل طعامه ، وجلس يأكل .. ثم حكى لها عن حفلات البكاء والعويل في طول غرناطة وعرضها ، وأن زملاءه في العمل ، تركوا عليه كل الشغل وذهبوا للصلاة على " فرانسيسكو ريبيرا " .. ولما كان في طريق العودة ، أصيبت سيارته بعطل ، فاستقل سيارة أجرة ، ظلّ يندب سائقها طوال الطريق حتى أوصله إلى البيت ! .

أنهت طعام الأولاد ، حملتهم جميعاً مع بنت الجارة إلى الحمام ، فغسلت ، ونظفت ، وعطرت ، وأعادت إلباسهم ، وتجهيزهم إلى المدرسة .. وسألت الأب إن كان سيصطحبهم إلى الروضة .. ولكنه كان مشغولاً بالوضوء ، ثم صلى ، فلبس حذاءه ، وفتح الباب مسرعاً ، ومضى مهرولاً نحو عمله ، خاصة وأن سيارته العجوز كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة .

أخذت الصغيرة إلى مهدها ، وهرولت بالصغيرين إلى الروضة ، وعندما عادت وجدتها قد أفرغت نصف ما أكلته .. نظفتها ، غيرت أغطية المهد ، وضعتها في العربة ، ثم اصطحبتها معها إلى المطبخ

الذي كان قد امتلأ بجميع أنواع الأطباق والأطعمة المحروقة والنصف مأكولة .. وكذلك ذلك الموقد المدرج في قائمة الأعمال الشاقة المؤبدة ، غير المرتبطة بلوائح عقوبات سجناء العالم !

صنعت لنفسها شطيرة من الجبن عندما ذكرها الإعياء الشديد أنها لم تأكل بعد ، وجلست تتناولها مع كأس من الشاي ، وقد فقدت شهيتها لتناول طعام الغذاء وحدها ، خاصة الكوسا باللحم .. فهم من أبغض الطعام إلى نفسها فما لم يكن الكوسا محشواً ، فهو لا يطاق ، وكيف تحشوه وهي لا تجد حفارة كوسا في طول غرناطة وعرضها ، فضلاً عن أنها لا تعرف أصلاً كيف تحفر الكوسا .. هذا كله إذا تركنا جانباً قضية كوسا غرناطة الشاذ .. والتي يبلغ فيها طول كل " كوساية " ثمانين إلى تسعين سنتمتراً على الأقل !!.

جلست تأكل وهي تتفرج على مسلسل إنجليزي اسمه " تحت .. فوق " يُثير الشجون وهو يتحدث عن علاقات الطبقات والناس ، لكنها لم تستطع إكمال الحلقة اليومية ، إذ رن الجرس ، كانت جارتها قد عادت من الكنيسة ، وقد أخبرتها أنها ستُحضر هي الأولاد جميعاً من المدرسة .

لم ترتح لذلك ، فلقد كانت تخاف بصورة مبالغ فيها عن عقيدة الأولاد ، لكنها كانت على غاية من التعب والإرهاق فقبلت ، وعادت تتم طعامها ، عندما قطع التلفزيون برامجه ، وبدأ يبث برنامجاً خاصاً عن مصارع الثيران ، وآخر اللحظات في حياته ، مما أثار عواطفها ، وجعلها تبكي منتحبة وهي تذكر كل مصارعي الثيران الذين يُقتلون في أنحاء كثيرة .. دون أن يبكيهم أحد .

أدت صلات العصر ، وأعدت رضاعة الحليب ، ومجموعة من الشطائر والفواكه .. ونزلت مسرعة لاستقبال الأولاد عند باب البناء ، حيث اعتادوا اللعب لدى خروجهم من المدرسة ، كما اعتاد جميع الأولاد في غرناطة .

لعب الأولاد ، وتناولوا ما يسمى في غرناطة وجبة العصر ، واستمعت إلى جاراتها ، وهن يتحدثن عن مآثر " فرانسيسكو " هذا .. وعن زوجته الجديدة التي كانت قد سرقته من زوجته الأولى ، وعن جنازته وعن صراع الزوجتين لحضور الجنازة ، وعن أطفاله الثلاثة .. إثنان من الأولى والثالث من الثانية ! .. وبكت مع الباكين .. وإذا كان الإسبان في الأندلس يجيدون شيئاً ، فإنما هو البكاء والندب على أنغام موسيقى الفلامنكو الحزينة الغاضبة .

صعدت بالأولاد ، نظفتهم ، وتركتهم يلعبون ، ويتابعون برنامج الأطفال قريباً منها لدى باب المطبخ الذي تنظفه يومياً في تلك الساعة .

أنهت عملها في المطبخ ، ثم عشّت الأولاد ، غسّلتهم ، نظفت أسنانهم ، ألبستهم ملابس النوم ، وضعتهم في أسرتهم ، قرأت معهم ولهم سور الورد اليومي ، حكت لهم قصة سيدنا ابراهيم عندما أراد الكفار حرقه ، وكيف جاءت كل حيوانات الغابة تساعد في إطفاء النار ، التي صارت برداً وسلاماً على ابراهيم ، ثم أعطت كل واحد منهما كتاباً مصوراً ينظر فيه ، نام الصغار .. وذهبت تنظف الصالة ، والحمام ، والمطبخ ، وتُعد لزوجها طعام العشاء .

جاء الزوج من عمله ومعه ضيفان ، تناولوا الطعام ، ولم يغادر الضيفان المنزل - كما هي عادة ضيوفهم - حتى بعد الثانية عشر ليلاً ، حيث استيقظت الرضيعة وبدأت في البكاء .

صلت العشاء وهي تحمل طفلتها التي بدا وكأنها منضبطة الصياح والبكاء على أوقات الصلاة ! .

استعدت للنوم وهي تحملها .. جهزت المهد وهي تحملها ، نقلت آنية الطعام إلى الثلاجة وهي تحملها .

قام الأب بتنظيف المائدة ، وصف الأطباق في المجلى ، وجلس يستمع إلى آخر نشرة إخبارية : أعمال عنف ومقتل شخص في إقليم الباسك ، بوادر أزمة خطيرة في الجزائر ، مذابح في مزارع الكوكا في كولومبيا ، حرب إيران والعراق مستمرة .. استعداد مقاطعة " أندلوثيا " لإقامة جنازة لمصارع الثيران " ريبييرا ".

نهض الرجل إلى فراشه ، وبقيت هي مع الطفلة .. سقتها النعناع، ثم البابونج ثم اليانسون .. ثم أعطتها دواءً قال الطبيب إنه ينفع لطرد الغازات ، وقال زوجها أنه سيؤذي جهاز الطفلة العصبي ، ولكن ليس من طبيب يوثق فيه في بيته !!.

كل ما فعلته لم يفد في إسكات الطفلة .. ولابد من نوم الزوج الذي سيواجه عملية سرطان في الرقبة ، في تمام السادسة فجر الغد .. فأخذت العربة ، وجلست في المطبخ تهز الصغيرة ، وكلما أوقفت الهز عاودت البُنية البكاء .. فصارت تهز العربة برجليها .. بينما وضعت الجزء الثالث من " البداية .. والنهاية " لابن كثير ، على ركبتها .. وصارت تقرأ فيه ، كما تفعل كل ليلة منذ وُلدت هذه الصغيرة التي لا تحسن النوم في الليل .

رن جرس المنبه في تمام السادسة .. فانتبهت مذعورة من مجلسها ، أخذت الطفلة إلى الغرفة ، وعادت إلى المطبخ تعد الحليب ، والقهوة ، ثم هرولت للوضوء والصلاة ، قبل أن توقظ زوجها .. لتباشر يوماً آخر .. من جديد .